﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾

[القصص: 62 - 63]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

التّوبيخ والتّعجيز والتّحسير بعد ظهورِ بطلان ما كان عليه الكافرون

لَمّا ثَبَتَ أنَّ الكُفّارَ يومَ القيامةِ قد عَرَفوا بُطْلانَ ما كانوا عليه، وعَرَفوا صِحَّةَ التَّوحيدِ والنُّبوَّةِ بالضَّرورةِ؛ قال لهم توبيخًا وتبكيتًا وتحسيرًا وتنديمًا يوم لا ينفعهم النّدم: أينَ ما كنتُم تَعبُدونَه وتَجعَلونَه شَريكًا في العبادةِ، وتَزعُمونَ أنَّه يَشفَعُ؟ أين هو ليَنصُرَكم ويُخَلِّصَكم مِن هذا الَّذي نزَلَ بكم[1]، ففي الآية حُسْنُ انتقالٍ مِن إثباتِ بَعثةِ الرُّسُلِ وبَعْثةِ محمَّدٍ ﷺ إلى إبْطالِ الشُّركاءِ للّهِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شُرَكَآءِيَ﴾: أصلُ (شرك) يَدُلُّ على مُقارَنَةٍ وخِلافِ انفِرادٍ، والشِّرْكَةُ: هو أنْ يكونَ الشَّيءُ بين اثْنَيْنِ لا يَنفَرِدُ به أحدُهُما، يُقالُ: شارَكْتُ فُلانًا في الشَّيءِ، إذا صِرْتَ شَريكَهُ، وأشْرَكْتُ فُلانًا، إذا جَعَلْتَهُ شَريكًا لَكَ[3]، والشِّرْكُ: يأتي بمعنى المُشارَكَةِ، وهي الانْضِمامُ والمُخالَطَةُ بين الشَّريكَيْنِ، يُقالُ: شَرِكْتُهُ في الأمْرِ وشارَكْتُهُ: إذا انْضَمَمْتَ إلَيْهِ وخالَطْتَهُ، وصِرْتَ شَريكًا لَهُ[4]. والمقصود بالشُّركاء في الآية: النُّظراء المزعومون يومئِذٍ، وهم المشركون باللّه تعالى.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 9.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 813، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 156.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرك).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 27، والفيومي، المصباح المنير: (شرك).

2) ﴿تَزْعُمُونَ﴾: (زعم) أصلُ الزَّعم: القَوْلُ مِنْ غيرِ صِحَّةٍ ولا يَقينٍ[1]، والزَّعْمُ، والزُّعْمُ، والزِّعْمُ، ثَلاثُ لُغاتٍ: القَوْلُ، وقيلَ: الزَّعْمُ الظَّنُّ[2]، قالَ شُرَيْح: لكلِّ شَيْءٍ كُنية، وكُنية الكَذِب: زَعَمَ. والزَّعم ادِّعاء العِلْم بالشَّيْء؛ ولِهذا يتَعَدَّى إلى مفعولين، كقوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾ [التغابن: 7][3]. والمراد بالزَّعم في الآية: الكذب، أي: تكذِبون في دار الدّنيا بأنَّهم شركائي[4].

3) ﴿حَقَّ﴾: أصلُ (حقَّ) يدلُّ على إحكام الشَّيءِ وصِحَّته[5]، يُقال: حَقَّ الشَّيْءُ، يَحَقُّ، حَقًّا: إذا ثَبَتَ ولزِمَ[6]، ويأتي الحَقُّ بمعنى الصَّحيح، وضِدُّهُ: الباطِلُ[7]، والحَقيقَةُ: الشَّيْءُ الصَّحيحُ يَقينًا[8]، وتحقَّقَ الأمرُ: إذا صَحَّ. والمُرادُ بـ ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ في الآية: وجَبَ عليهم مقتضاه وثبت، وهو قوله: لأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّة والنّاس أجمعين[9]، أي: وجبتْ عليهم كلمةُ العذاب[10].

4) ﴿أَغْوَيْنَآ﴾: أصلُ (غوي) يَدُلُّ على خِلافِ الرُّشْدِ وإظْلامِ الأمْرِ[11]، والغَواية - بفتح الغين: الضَّلال واتِّباع الهوى والانهماك في الباطل، ورجلٌ غاوٍ: ضالٌّ، وأغْواه هوَ، وغوى غيًّا: انهمك في الجَهل[12]، والغَيُّ: جهلٌ من اعتقادٍ فاسد[13]، ومن معانيها أيضًا: الخيبة، فيقال: غوى الرَّجُل: إذا خاب[14]، والمقصود بالإغواءِ في الآية: جَعْلُ الشَّخصِ ذا غِوايةٍ، وهي الضَّلالُ عن الحقِّ والرُّشدِ[15].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (زعم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (زعم).
(3) الكفويّ، الكليات، ص: 488.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 17/ 445.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة: (حق).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(8) إبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط: (حق).
(9) النّسفي، مدارك التّنزيل: 2/ 652.
(10) الواحديّ، التّفسير البسيط: 17/ 434.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غوي).
(12) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غوي).
(13) الراغب، المفردات: (غوي).
(14) ابن منظور، لسان العرب: (غوي).
(15) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 63.

5) ﴿تَبَرَّأْنَآ﴾: أصْلُ (برأ) التَّباعُدُ مِنَ الشَّيْءِ ومُزايَلَتُهُ، مِنْ ذلكَ: البُرْءُ وهو السَّلامَةُ مِنَ السُّقْمِ، يُقالُ: بَرِئْتُ وبَرَأْتُ[1]، وقيل: أصله القَطْعُ[2]، والبَراءَةُ: التَّخَلُّصُ مِن الشَّيْءِ، والخُروجُ منه والمفارَقَةُ له، يُقال: بَرِئَ من الدَّيْنِ، يَبْرَأ، بَراءَةً: إذا تَخَلَّصَ منه[3]، والتَّبرُّؤ هنا: تَفَعُّلٌ من البراءةِ وهي انتفاءُ ما يَصِمُ، وهي أيضًا: مُعالجةُ إثباتِ البراءةِ وتحقيقها، والمقصود: أنَّهم يتبرّؤون من كونهم شُركاءَ للّه[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

دُعـاءُ الشُّـركاءِ تيـئيسٌ لـهـم، وتنديمٌ لما كانوا فيه من ضلالٍ

واذكر أيُّها الرَّسول ﷺ لقومك يوم ينادي ربّ العزّة هؤلاء الذين يضلّون النّاس ويصدّون عن سبيل اللّه، فيقول لهم: أين شُرَكائيَ الَّذين كُنتُم في الدُّنيا تَزعُمونَ أنَّهم شُرَكاءُ لي في العبادةِ، وأنَّهم يَنفَعونَكم ويَنصُرونَكم ويَشفَعونَ لكم؟ قال الَّذين وجَبَ عليهم عذابُ اللّهِ وغَضَبُه مِنَ الدُّعاةِ إلى الكُفرِ والضَّلالِ: يا ربَّنا، هؤلاءِ التّابِعونَ لنا الَّذينَ دعَوْناهم إلى الباطِلِ فأطاعونا، أضْلَلْناهم مِثلَما كنّا ضالّينَ، تبَرَّأْنا إليك مِنَ الَّذينَ أطاعونا وممّا اختاروه مِنَ الكُفرِ؛ هَوًى منهم للباطِلِ، ومَقْتًا للحَقِّ، فما كانوا في الدُّنيا يَعبُدونَنا، إنَّما كانوا يَتَّبِعونَ أهواءَهم وشَهَواتِهم[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في جملة ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾:

يومٌ عظيمٌ واحدٌ في ذاتـه متعدّدٌ بتعدّدِ أوصافه

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ عاطفةٌ؛ والمعطوفُ عليه قوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾، لتفيدَ بذلك سببَ كَونِهم مِنَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برأ).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة: (برأ).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (برأ).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 159.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 296، والزّمخشريّ، تفسير الكشّاف: 3/ 426، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 81، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 622.

المُحْضَرينَ، أيْ: لأنَّهم اتَّخَذوا مِن دونِ اللّهِ شُركاءَ، وزَعَموا أنَّهم يَشْفَعونَ لهم، فإذا هم لا يَجِدونَهم يومَ يُحضَرونَ للعذابِ.

وهذا العطف إمّا عطفٌ على جملة ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ بحيث يكون مبدأ الجملة المعطوفة ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ أيْ: يُحْضَرونَ ويُنادِيهم فيقولُ: أينَ شُركائي، أو عطفُ مفرداتٍ بحيث يكون مبدأ الجملة المعطوفة (يَوْمَ يُنادِيهِمْ) ويكون (يومَ) عَطْفًا على ﴿يَوْمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾؛ فيَكونُ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ عَيْنَ يومِ القيامةِ، وكان حقُّه أنْ يأتيَ بدَلًا مِن يومِ القيامةِ، لكنَّه عدَلَ عن الإبْدالِ إلى العَطْفِ؛ لاخْتِلافِ حالِ ذلكَ اليومِ باخْتِلافِ العُنوانِ، فنُزِّلَ مَنزِلةَ يومٍ مُغايِرٍ؛ زيادةً في تَهْويلِ ذلكَ اليومِ[1].

موقع الظّرف ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾:

يومٌ مهولٌ أمره، عظيمٌ خطره، كأنّه خُصصَ لحسابِ الذين أشركوا

(يَوْمَ) في قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ إمّا منصوبٌ بالعطفِ على يومِ القيامةِ لاختلافهما عُنوانًا وإنِ اتَّحدا ذاتًا؛ زيادةً في تهويلِ أمرِ ذلك اليوم وتعظيم خطره[2]، أو بإضمارِ اذكُر، والتّقدير: (واذكر أيّها المخاطب - لتتّعظ وتعتبر - حالَ أولئك الظّالمين، يوم يناديهم اللّه)[3]، وإضافةُ (يوم) إلى جملة ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ فيها تهويلٌ وتقريعٌ؛ إذ تفيدُ هذه الإضافة كأنّ هذا اليوم الذي يَفْصِلُ اللّهُ فيه في كلّ شؤون الخلق، كأنّه كان خصيصًا لحسابِ الذين أشركوا، وكأنّه لا شأنَ ينظره اللّهُ فيه إلا شأنهم هذا[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 156.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 332، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 21، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 156.
(3) سيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 427.
(4) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام، ص: 207.

سرّ التّعبير بالنّداء في ﴿يُنَادِيهِمْ﴾:

النداءُ في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ صادرٌ عن الله تعالى للذين أشركوا به الأندادَ والأوثان في الدُّنيا[1]، بقرينة قوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾، أو صادرٌ عن ملائكة العذاب، فيكون قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ حكايةً من الله تَعالَى، وعلى التّقديرين النّداءُ هنا للإهانةِ والتّحقير[2] والتّوبيخ، ولذا أجابَ الشّركاءُ مع أنّهم غير مسؤولين[3].

نـــداءُ إهـانـةٍ وتحقيرٍ وتوبيخٍ للذين أشركوا بالله

ولا تعارضَ بين مناداةِ الله لهم وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [البقرة: 174]؛ لأنّ المقصود منها كلامُ الرّضا والرّحمة، فلا ينافي أنّه يكلمهم كلامَ غضبٍ وسخط[4].

دلالة التّعبير بالمضارعة ﴿يُنَادِيهِمْ﴾:

التّعبيرُ بالمضارعة في قوله: ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ يُعزّز الشّعورَ بالواقعيّة والقربِ من الحدث، ويجعل السّامعَ يتخيّلُ ويتصوّرُ لحظةَ الخزي وذلِّ المشْهدِ يوم القيامة الذي سيُنادى فيه المشركون، ويُطلب منهم الاعترافُ بأفعالهم، بتوجيه السّؤال التّوبيخيّ التّقريعي التّنديديّ: "أين شركائي؟"، ممّا يُعزّزُ القوّةَ والتأثيرَ البلاغيّ والنّفسيّ لهذه الآية، بهدفِ التّحذيرِ من هذا الموقف والتّخويف منه، بما يدفعهم للإيمانِ ونبذِ الشّركِ قبل فواتِ الأوان.

تصويرٌ لحدثٍ عظيم يُعزّزُ التّأثيرَ النّفسي بما يدفعُ لنبذِ الشّركِ

مرجع ضمير الفاعل والمفعول في ﴿يُنَادِيهِمْ﴾:

ضمير الفاعل في ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ عائدٌ إلى اللهِ تعالى[5]، أو إلى ملائكةِ العذاب، ويكون قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ حكايةً من الله تَعالَى[6]، وقد

الأمـرُ في ذلكم اليوم العظيم لا يكون إلا لله والمشركون أحقرُ من أنْ يُذكروا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 606.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 552، وسيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 427.
(3) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 80.
(4) حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 1418.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 156.
(6) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 552، وسيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 427.

أضمره البيانُ القرآنيُّ، ولم يقل: (ويوم ينادي اللّهُ)؛ لكونه معلومًا، إذ الفعلُ في ذلك اليوم العظيم - الذي لا ملكَ ولا أمرَ فيه إلا للّه - لا يكونُ ولا يصلحُ إلا منه سبحانه، بشكلٍ مباشر أو عن طريقِ ملائكته. وأيضًا استخفافًا بالمشركين وتحقيرًا لهم، فهم أدنى من أنْ يُصرّح بمن يناديهم، سواءٌ كان اللّه سبحانه أو ملائكته.

وأمّا ضمير الجمع المنصوب (هم) فعائدٌ إلى المُتَحَدَّثِ عنهم في الآيات السّابقة، ابتداءً من قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾ [القَصَص: 57] وهم جميعُ المشركينَ من التّابعين والمتبوعين، كما اقتضاه قوله تعالى: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾[1]، وقد أضمره البيانُ الحكيم اختصارًا لدلالةِ ما قبله عليه، وإشارةً إلى تحقيرهم بعدمِ التّصريح بأسمائهم، فهم أحقرُ من أنْ يُذكروا.

معنى (الفاء) في ﴿فَيَقُولُ﴾:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ﴾ حرفُ عطفٍ وتفسير[2]، والجملةُ بعدها تفصيلٌ وتفسيرٌ بعدَ إجمال؛ فقد أجملَ النّداء، ثمّ فصّله بما بعده بقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾، تنبيهًا على أهميّة ما يُنادون به، وتشويقًا لمعرفةِ بيانه.

تفصيلٌ وتفسيرٌ بعدَ إجمالٍ بنداءٍ ينبّهُ النّفسَ ويشوّقُها لمعرفةِ بيانه

نكتة النّص على القول في ﴿فَيَقُولُ﴾:

نصّ البيانُ القرآنيُّ على القولِ ﴿فَيَقُولُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ﴾، فلم يقل: (ويوم يناديهم أين شركائي)؛ زيادةً في التّوبيخ والتّفضح[3]، وتأكيدًا على أهميّةِ الحدثِ وهو النّداء من العظيمِ ﷻ، وتسليطًا للضوءِ عليه بقوّةٍ تجعلُ القارئَ ينتبه ويتأمّل

تأكيدُ أهميّةِ النّداء العظيم والانتباهِ إليه وأهميّة مضمونه من نفي الشّركاء المزعومين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 156.
(2) الدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 94.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 108.

فيه، وتأكيدًا على أهميّة المقولِ، والذي هو استفهامُ توبيخٍ وتقريعٍ وتأنيبٍ لنفي الشُّركاء المزعومين؛ لأنّ ﴿فَيَقُولُ﴾ تكرارٌ قُصد به تفسير النّداء.

بلاغة الكناية في الاستفهام بـ ﴿أَيْنَ﴾:

المبالغة في إثباتِ انْتِفاءِ وُجودِ الشُّركاءِ المَزْعومينَ يومَ القيامة

الاستِفْهامُ بكلمةِ ﴿أَيْنَ﴾ ظاهِرُه استِفْهامٌ عنِ المكانِ الَّذي يوجَدُ فيه الشُّركاءُ، ولكنَّه مُستَعْمَلٌ كنايةً عن انْتِفاءِ وُجودِ الشُّركاءِ المَزْعومينَ يَومَئذٍ، فالاستِفْهامُ مُستَعْمَلٌ في الانْتِفاءِ[1]، وهذا لا يعني غَيْبَتَهم حقيقةً، بل يكفي في ذلك عدمُ حضورهم بالعنوان الذي كانوا يزعُمون أنّهم متّصفون به من عنوان الإلهيّة[2].

واستخدامُ الكناية في الاستفهام يضيفُ قوّةً وتأثيرًا له في إثباتِ انْتِفاءِ وُجودِ الشُّركاءِ المَزْعومينَ يوم القيامة؛ إذ يعطي لمسةً من الغموضِ والتّأمّل، ويجعلُ القارئَ يتأمّلُ في معنى السّؤال والإجابة المحتملة عنه، ويُعزّزُ البحث والتّساؤل عن مكان هؤلاء الشّركاء، وانعدامِ وجودهم في الواقع، أي يُشيرُ إلى الاستفهامِ العميق حول الحقيقةِ والواقع الذي سيُكشفُ في يوم القيامة.

براعة التّعبير بمفردة الشّركاء:

تسويةُ الخالقِ بالمخلوق دليلٌ على حُمقِ المشركين

أطلقَ اللّهُ على الأصنام اسمَ الشّركاء؛ لأمرين: أحدهما أنَّ المشركين يشركونها مع اللّهِ في العبادة، والتّعظيم، والتّقديس، وثانيهما: أنّهم يشركونها معه في الأموال، والأنعام، والزروع[3]. وقد عبّر بمفردة الشّركاء؛ للدّلالة على شدّة حمقِ المشركين؛ إذ يسوّون الخالقَ بالمخلوق، والقادرَ بالعاجز؛ ولإيقافهم على مدى ضلالهم؛ إذ يظهرُ لهم عَجْزُ ما عبدوه من دون اللّه عن نصرةِ أنفسهم فضلًا عن نصرتهم؛ إذ الشّركةُ في اللغة تعني التّسوية، أي أنْ يكون الشَّيءُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 156.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 108.
(3) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 94.

بين اثْنَيْنِ لا يَنْفَرِدُ بِهِ أَحَدُهُما[1]، والمشاركةُ: خلطُ المِلْكَيْن[2]؛ وهذا قد تبيّن لهم يوم القيامة بطلانه بشكلٍ قطعيٍّ.

لطيفة الإضافة في ﴿شُرَكَآءِىَ﴾ وجَمْعِهم:

تـوبـيـخُ الـلـهِ للمشركين؛ إذ لا شيءَ أجلبُ لغضبِ الله من نسبةِ الشّريك له

أضاف البيانُ القرآنيُّ لفظ (شركاء) إلى ضميرِ اسم الجلالة ﴿شُرَكَآءِىَ﴾ حكايةً لإضافتهم الكاذبة، "فإنّهم لَمّا أطاعوهم فقد صيّروهم لمكانِ الطّاعة بمنزلةِ الشّريك للّه تعالى[3]"، وهذا فيه توبيخٌ إثرَ توبيخٍ مع الاستهزاء بمن ادّعوا للّه شركاء[4]، وتهكُّمٌ بهم[5]؛ لأنّ مظهرَ عظمةِ اللّه تعالى يومئذٍ للعَيانِ ينافي أنْ يكون له شريكٌ، فالمخاطبون عالمون حينئذ بتعذّرِ المشاركة[6]، وإيذانٌ بأن لا شيءَ أجلبُ لغضبِ اللّه من نسبةِ الشّريك له.

وفي الجمعِ مبالغةٌ في بيانِ حمقِ الكافرين وشدّة ضلالهم؛ لكونه يشيرُ إلى كثرةِ الذين اتّخذوهم شركاء للّه في العبادة والأموال في زعمهم وتعدّدهم، وكذلك بيانُ عجزِ مَنْ زعموهم شركاءَ حالَ اجتماعهم، فعجزُهم حالَ فرقتهم آكد، ويلفتُ الانتباه إلى ذلك.

غرض الاستفهام، ولطيفته بـ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾:

تعجيزُ الكافرين وتوبيخهم

المرادُ من الاستفهام التّهكّم؛ لأنّ المقامَ مقامُ تهكّم؛ ليظهرَ لهم طمعهم في البحث عن آلهتهم، وهم قد علموا ألّا وجودَ لها، ولا مكان لحلولها بصفة الألوهيّة[7]. والغرضُ أيضًا من الاستفهام التعجيزُ والإفحامُ والتّنديم[8]، والتّوبيخُ والتّقريع[9]، والخزيُ والفضيحةُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرك).
(2) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 313.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 9.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 108.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 425.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 136.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 136.
(8) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 552.
(9) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 318.

للمشركين؛ إذ من المعلوم أنّه لا شركاء للّه تعالى لا في ذاته ولا في صفاته[1]، حيث لم تنفعهم معبوداتهم في هذا الوقت العصيب، "وحيثُ يتبرّأُ بعضهم من بعض"[2]. وكذلك يفيدُ الاستفهامُ التّهويلَ وإبطالَ كيدِ أهلِ التّضليل[3].

عِلّة التّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في الآية:

في الاستفهامِ عن كلّ الشّركاء المزعومين للّه نعيٌ على المشركين

إيثارُ استعمالِ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصلته ﴿كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ لإفادة العموم، فيكون الاستفهامُ عن كلّ الشّركاء المزعومين للّه، وللتّوصّل إلى النّعي على الزعم الذي كانوا يزعمونه في الحياةِ الدّنيا، أمّا في ذلك اليوم فقد أيقنوا أنّهم كانوا كاذبين[4]، وللتّنبيه على ضلالهم وخطئهم في ادّعاء مشاركة هذه الأصنام للّه[5].

نكتة تقييد زعمهم بالكون الماضي ﴿كُنتُمْ﴾:

زعْمُ الكفارِ أنّ للّه شركاءَ أمرٌ تحقّقَ منهم واستمرّ زمنًا طويلًا

قيّد البيان الإلهي زعمهم بفعل كان الماضي في قوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، ولم يقل: (أين شركائي الذين تزعمون)، للإعلام بأنّ سؤال الكافرين هو عن الشّركاء الذين جعلوهم شركاء للّه في الدّنيا، وللتّنبيه على استمرارهم زمنًا طويلًا في هذا الشّرك.

دلالة التّعبير بالزّعم في ﴿تَزْعُمُونَ﴾:

تصويرُ قولهم الباطل بأنّ للّه شركاءَ واستمرارهم عليه يدلّ على شدّةِ شناعته

عبّر القرآنُ بلفظ الزّعم في قوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ للتّناسب بين معاني الزّعم وبين السّياق والمقام؛ إذ أصلُ الزّعم في اللغة هو القولُ من غير صحّةٍ ولا يقين، وهو

(1) سيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 428.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 10/ 372.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 76.
(4) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام، ص: 208.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 136.

التّكفّل بالشّيء أيضًا. والزّعم هو حكايةُ قولٍ يكون مظنّة الكذب[1]، وأكثر ما يُستعمل الزّعم فيما يُشكُّ فيه أو يكون باطلًا، وقد استعمله القرآن في مواضع ذمِّ القائلين[2]، وهذه المعاني كلّها تتناسب مع حال المشركين الذين زعموا بأنّ للّه شركاء؛ وقولُهم هذا باطلٌ كذبٌ لا صحّة له ولا دليلَ عليه، ويتناسب مع السّياق الذي يذمّهم ويُنكر عليهم هذا القول ويحمّلهم تبعة قولهم، فهم متكفّلون ومسؤولون عن هذا الشّرك المزعوم.

وقد جاء لفظ الزّعم بصيغة الفعل المضارع ﴿تَزۡعُمُونَ﴾ الذي يدلّ على التجدّد والحدوث والاستمرار، ويؤكّد هذا الاستمرار أنّه سُبق بفعل الكون الماضي ﴿كُنتُمۡ﴾ الذي دلّ على استمرارهم على هذا الزّعم زمنًا طويلًا في الماضي، وكذلك يصوّر شناعة زعمهم وقولهم وافترائهم على اللّه ونسبة الشّركاء له.

لطيفة إسناد الزّعم إلى جماعتهم في ﴿تَزۡعُمُونَ﴾:

الـــذمُّ يشـمـلُ جميعَ المشركين، وتـحـمّـل تبعة قولهم تطالُهم لاتّفاقهم عليه

أسندَ البيانُ القرآنيّ فعلَ ﴿تَزۡعُمُونَ﴾ إلى واو الجماعة في قوله تعالى: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾؛ للإشارة إلى اتّفاق المشركين على هذا الزّعم، وأنّه صدر من الجميع، دون أنْ يبحثوا عن دليلٍ أو يقينٍ لزعمهم هذا، ومن ثمّ فالذمُّ يشملهم جميعًا، وتحمّل مسؤولية وتبعة قولهم تطالهم جميعًا.

بلاغة حذف مفعولي ﴿تَزۡعُمُونَ﴾:

استخفافُ اللهِ بشأنِ الشّركاء؛ فـهـي أوهـــامٌ وظنونٌ يتخيّلها المشركون

مَفْعولا ﴿تَزۡعُمُونَ﴾ مَحْذوفانِ؛ دَلَّ عليهما قوله تعالى: ﴿شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾، أيْ: تَزْعُمونَهم شُركاءَ لي كذبًا وافتراءً[3]، وهذا الحَذْفُ اختِصارٌ؛ لدَلالةِ الكَلامِ عليهما[4]، وفي الحذفِ إيماءٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (زعم).
(2) الكفوي، الكلّيّات، ص: 488.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 425، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 295.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 21، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 156.

باستخفافِ اللّه سبحانه بشأنِ الشّركاء وتحقيرًا لهم، فهم أوهامٌ وظنونٌ يتخيّلها الكفرة والمشركون لاعتقادهم الضّال.

علة فصل جملة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ﴾ عمّا قبلها:

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ عن التي قبلها، ولم يربطهما بعاطف: إمّا لأنّها وقعتْ في موقع المحاورة؛ فهي جوابٌ عن الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾، والذين تصدّوا للجوابِ هم بعض المنادى عليهم، الذين علموا أنّهم الأحرياءُ بالجواب، وهؤلاء هم أئمةُ أهلِ الشّركِ من أهلِ مكّة[1]. أو لأنَّ بينهما شبهَ كمالِ اتّصال؛ إذ إنّ قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ استِئْنافٌ مَبنيٌّ على حكايةِ السُّؤالِ؛ واقع في جواب سؤال مقدّر، تقديره كأنَّه قيلَ: فماذا صدَرَ عنهُم حينَئذٍ؟ فقيلَ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾[2].

حوارٌ قرآنيٌّ جاءَ فيهِ قولُ أئمةِ أهلِ الشّرك جوابًا على سؤالِ اللهِ سبحانه

غرض تعريف المسند إليه بالموصولية ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ﴾:

المراد ممّن حقّ عليه القولُ في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ بعضهم وهم الشّركاء، أو رؤساؤهم في الكفر، ودعاتهم إليه كالشّياطين[3]، ومن يشبهونهم في التّحريض على الضّلال، الذين ثبت عليهم العذاب بسبب إصرارهم على الفسوق والجحود[4]. وفائدةُ الصّلة إخراجُ مثل عيسى وعزير والملائكة لشمول الشّركاء له[5].

إنّ القرين بالمقارن يقتدي

دلالة التّعبير بمفردة ﴿حَقَّ﴾ دون (وَجَبَ):

عبّر البيانُ الإلهيّ بمفردة ﴿حَقَّ﴾ دون (وَجَبَ)؛ للدّلالةِ على

استحقاقُ أئمّةِ الكفرِ للعذاب حكمٌ ثابتٌ من اللهِ عدلٌ وصدقٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 157.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 21، وحاشية الصّاوي على الجلالين، ص: 1419.

(3) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 426، ويؤيّد كون المراد الشّيطان قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾ [إبراهيم: 22]، ينظر: القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 555.

(4) سيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 428.

(5) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 7/ 81.

استحقاقِ رؤساءِ الكفرِ وأئمّته والدّعاةِ إلى الضّلال حكمَ اللّهِ عليهم بالعذاب وثبوته عليهم، وأنّه حُكمٌ صحيحٌ صادقٌ عدلٌ مطابقٌ لواقعهم؛ إذ إنّ الحقّ يدلُّ في أصله على إحكام الشّيء وثبوته وصحّته[1]، والمطابقةِ والموافقة، ومن معانيه الصّدقُ والعدلُ والثّبات[2]، ولو عبّر بلفظ (وجب) لَما أفادَ هذه المعاني ولاقتصرَ على معاني الاستقرار واللّزوم للحكم التي يدلُّ عليها معنى (وجب)[3].

وقد جاء التّعبير بمفردة ﴿حَقَّ﴾ بصيغة المضي؛ لتحقّق وقوعِ حكمِ اللّه عليهم[4]، بثبوتِ مُقتضاه وتحقُّقِ مؤدّاه[5].

معنى حرف الجر (على) في ﴿عَلَيۡهِمُ﴾:

تمكّن العذاب من أئمّة الكفر، بشكلٍ مؤكّد لا يمكن الفكاك منه

عُدّيَ الفعل ﴿حَقَّ﴾ بحرف الجر (على) في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ لإفادة معنى الوجوب والإلزام والاستحقاق، أي وجَبَ العذاب على أئمة الكفر لاستحقاقهم له بسبب أفعالهم وأقوالهم ومواقفهم، فهم مُلْزَمون بتحمّل تبعاته. وكذلك الحرف (على) يفيد الاستعلاء والتّمكُّنَ، أي تمكّن القول والعذاب من أئمة الكفر، وثبوته ووجوبه عليهم، فقد وقع عليهم بشكلٍ مؤكّد لا يمكن الفكاك منه.

نكتة تقديم ﴿عَلَيۡهِمُ﴾:

التّنبيهُ على تحقّقِ القولِ على أئمّة الكفر واختصاصه بهم

قدّم القرآنُ الجارَّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ على الفاعل ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾؛ للتّركيز على المفعول به، أي بمن حقّ عليهم القول – وهم أئمّة الكفر –؛ وللتّشويق إلى الفاعل ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾، وهو ما الذي حقّ عليهم، فالسّياقُ في سؤال هؤلاء عن

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حقّ).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حقق).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وجب).
(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 552.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 21.

الشّركاء، وعن شركهم، فناسب تقديم ﴿عَلَيۡهِمُ﴾؛ ليُخصّص القولَ لهؤلاء الأشخاص دون غيرهم؛ وليتنبّه السّامع إلى أنّ القول قد تحقّق عليهم بشكلٍ لا لبسَ فيه، ممّا يُعزِّزُ من وضوحِ المعنى وتأكيده.

دلالة التّعبير بالقول، وتعريفه بـ(أل):

القولُ الذي حقّ على الكافرين هو كلمةُ العذاب

عبّر البيانُ الإلهي بلفظ القول دون العذاب في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾، فلم يقل: (الذين حقّ عليهم العذاب)؛ وذلك لاتّساع دلالة لفظ القول؛ إذ أصله يدلّ على النّطق والكلام[1]، ويُستعملُ على أوجهٍ؛ منها: للمنطوق من الأحرف، وللمتصوَّر في النّفس قبل التلفّظ، وللاعتقاد، وللدّلالة على الشّيء، وللعناية الصّادقة بالشّيء، وللإلهام[2]، واستعمله القرآن بمعنى السّابق في علم الله، وبمعنى العذاب[3] - فالقولُ الذي حقّ على الكافرين وحكمَ الله به عليهم هو كلمةُ العذاب التي أوجبها الله عليهم، فصدقتْ عليهم، وسبقَ في علمه سبحانه استحقاقهم لها. ومعنى (أل) التّعريفِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ عهديّةٌ، معهودُها ذهنيّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٣﴾ [السجدة: 13] وغيره من آياتِ الوعيد[4].

موقع جملة ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾:

منادَاةُ أئمّة الكفر لربّهم بدلًا من إجابته عن مكانِ الشّركاء

جملة النّداء في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾ في محلّ نصب مقول القول ﴿قَالَ﴾ في قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾[5]، وقولهم هذا هو جوابٌ عن سؤال الله لهم عن شركائه ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾، وكان المفروض أنّ يأتي الجواب من أئمّة الكفر

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزّبيدي، تاج العروس: (قول).
(2) الرّاغب، المفردات، والزّبيدي، تاج العروس: (قول).
(3) ابن الجوزي، نزهة الأعين النّواظر، ص: 488.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 21.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 21/ 270، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 20/ 283.

بتعيين مكان الشّركاء حسب مقتضى السّؤال، ولكنّهم سارعوا إلى مناداتهم لربّهم والاستغاثة به طلبًا لرحمته، وتبريرًا لموقفهم ونفيًا للتّهمة عنهم، لأنّ ذلك أهمّ عندهم من الإجابة بتعيين مكان الشركاء.

دلالة التّعبير بالرّبوبية في ﴿رَبَّنَا﴾:

اعتراف أئمّة الكفر بالله ربًّا ينبئ عن حالتهم من التذلّل وطلبِ الرّحمة منه سبحانه

أتى البيانُ القرآنيُّ بالتّعبير بالربوبيّة على لسان أئمّة الكفر يوم القيامة من خلال قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾ للدّلالة على اعترافهم بالله ربًّا ومولىً لهم، وهو الذي يملك أمورهم وتدبير شؤونهم. كما أشار التّعبير بوصف الإحسان ﴿رَبَّنَا﴾ إلى حال أئمّة الكفر وقادة الجهل من التذلّل والانكسار[1]، ويعكس الاعتراف بذنوبهم والتّوبة إليه واستغاثتهم به وطلب الرّحمة منه.

غرض النّداء وحذف أداته في ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

استغاثةُ أئمّةِ الكفر بالله محاولةٌ للتّواصل معه طلبًا للرّحمة

في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾ نادى أئمّةُ الكفر اللّهَ تعالى، وغرضُ هذا النّداء هو الدُّعاءُ والاستغاثة بعد أنْ رأوا العذاب، مشيرين إلى أتباعهم، ومعترفين بإغوائهم، ليبرّروا موقفهم، وليطلبوا الرّحمة من ربّهم. وهذا النّداءُ يعبّر عن حالةٍ من النّدم والاعتراف بالذّنب، ويُظهرُ محاولتهم للتّواصلِ مع الله في موقفهم الصّعب، وهذه المعاني يؤكّدها إسقاطُ أداةِ النّداء (يا)؛ إذ يشيرُ إسقاطها إلى أنّ أئمة الكفر، وقادة الجهل وصلوا بعد السّماجة والكِبْر إلى غايةِ الترقّق والذّلّ[2].

موقع جملة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ﴾:

ثبوتُ وتحقّقُ اعترافِ أئمّةِ الكفر بإغواءِ أتباعهم

قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾ يحتملُ ثلاثةَ أوجه؛ **أحدها**: أنّ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾ صفته،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 334.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 334.

والعائدُ محذوف، أي أغويناهم، والخبر ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾، و﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ نعت لمصدرٍ محذوف، ذلك المصدر مطاوعٌ لهذا الفعل، والتّقدير: (أغويناهم فغوَوا غَيًّا مثل ما غوينا)[1]. **والثّاني**: أنّ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ خبره[2]، و﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾ مستأنفٌ؛ لتقريرِ ما قبله[3]، والمعنى: هؤلاء الذين دعوناهم إلى الغيّ وهم الأتباعُ ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أضللناهم كما ضللنا ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم[4]. **والثالث**: أنّ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ خبرُ مبتدأ آخر، والتّقدير: (هؤلاء هم الذين أغويناهُم)[5].

وعلى الأوجه الثّلاثة فالجملةُ اسميّة تفيدُ ثبوتَ وتحقّقَ اعترافِ أئمّة الكفر بإغواءِ أتباعهم؛ ظَنًّا منهم أنّه قد ينفعهم.

مرجع الإشارة وغرضها في ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

زيادةُ حرصِ أئمّةِ الكفرِ على تقويةِ حجّتهم من خلالِ إشارتهم إلى أتباعهم

الإشارةُ بـ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ من قبلِ أئمّة الكفرِ والضّلال في قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ ترجعُ إلى بقيّةِ المُنادَينَ، وهم أتباعهم[6]؛ وذلك قَصْدًا منهم لأنْ يَتَمَيَّزوا عمَّنْ سِواهُمْ مِن أهلِ المَوقِفِ؛ تخويفًا لهم، وحرصًا من أئمّة الكفر في أنْ يكونَ لهم مَطْمَعٌ في التَّخلّصِ بالتّبرؤ من الأتباع[7]، بأنّهم يقولون ما يقولون بمحضرٍ منهم، وأنّهم غيرُ قادرينَ على إنكارِه وردِّه[8].

علة التّعبير بـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله ﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾:

اعترافُ أئمّةِ الكفرِ بإضلالِ الأتباعِ وبكثرتهم مع استخفافٍ بهم

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 426.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 158.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 210.
(4) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 15/ 279.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 92، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 21.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 334.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 185.
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 21.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾ دون الاسم الظّاهر فلم يقلْ: (هؤلاء الغاوون)؛ للإيذانِ بأنّ معنى الصّلة معروفٌ لدى المخاطبين؛ فأغنى عن التّصريح به اسمًا، كما أنّ التّعبيرَ بالاسم الموصول يفيدُ اعترافَ أئمّة الكفرِ بأنّهم هم من أضلوا الأتباعَ بتزيينِ الباطلِ لهم. ويدلُّ على عمومِ وكثرةِ من أغواهم أئمّةُ الكفر، ويشيرُ إلى استخفافِ أئمّةِ الكفرِ بأتباعهم، بما يتضمّنه الاسم الموصول من إبهامٍ.

دلالة التّعبير بالإغواء في ﴿أَغۡوَيۡنَآ﴾:

التَّعبيرُ بلفظ الإغواء في الآيةِ دون الإضلالِ يدلُّ على مبالغةٍ وشدّةٍ في الإضلالِ الذي قام به رؤساء الكفر؛ من إظلامِ الأمر على أتباعهم، واستغلالِ جهلهم، ونشرِ اعتقاداتٍ فاسدةٍ بينهم، والتّعاون والتّجمّع على إضلالهم، وهذا في الدّين خاصّة، وذلك بقصدِ صرفهم عن الرّشد، وهذا ما تدلُّ عليه المعاني اللغوية للغواية[1]، ويتوافق مع حال رؤساء الكفر مع أتباعهم. كما أنّه يناسبُ السّياق الذي فيه احتباكٌ يدلُّ على تَبَرُّؤِ رؤساءِ الكفر من كاملِ المسؤوليّة في الضّلال، وتحميلِ الأتباعِ قسطًا كبيرًا منها بسبب فسادهم وانهماكهم في الجهل والباطل؛ رغم أنّهم يملكون عقولًا وجاءتهم الرّسل، وأنّ رؤوسَ الكفر لم يُكرهوهم أو يجبروهم على الضّلال، وإنَّما غايةُ أمرهم الوسوسة والتّزيين. ولو عبّر البيان القرآنيُّ بالضّلال لما دلّ على هذه السّعةِ في المعنى، والمبالغةِ في الضّلال لما ناسبَ السّياق والمقام؛ إذ الضّلال في اللغة هو ضدّ الهدى، وهو كلُّ عدولٍ عن الحق عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا[2].

الغوايةُ مبالغةٌ في إضلالِ المُضِلّ مع جهلٍ وخيبةٍ وانهماكٍ في الباطل

نكتة حذف مفعول ﴿أَغۡوَيۡنَآ﴾ وذِكْرِ مَفعولِ ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ﴾:

حُذِفَ مَفعولُ فِعْلِ ﴿أَغۡوَيۡنَآ﴾ الأوَّلِ - وهو العائدُ مِنَ الصِّلةِ إلى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (غوي).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 394، والزّبيدي، تاج العروس: (ضلل).

المَوصولِ -؛ لكَثرةِ حَذْفِ أمْثالِه؛ لأنَّ اسمَ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مُغْنٍ عن ذِكْرِه ودالٌّ عليه؛ فكان حَذْفُ العائدِ اختِصارًا، وذِكْرُ مَفعولِ فِعْلِ ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾ الثّاني اهتِمامًا بذِكْرِه؛ لعدَمِ الاستِغْناءِ عنه في الاستِعْمالِ[1].

حـــذفٌ وذكـــرٌ لمـفـعـولٍ واحـدٍ في آيـةٍ واحـدةٍ يـدلُّ على كمالِ الإعجاز

نكتة إسناد الإغواء إلى ضمير الجماعة في الآية:

أسندَ البيانُ الإلهيُّ الإغواءَ إلى ضمير الجماعة في الآية في المفردات الظّاهرة الآتية، وهي: ﴿أَغْوَيْنَآ﴾ و﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾ و﴿غَوَيْنَا﴾؛ إذ التّقديرُ: هؤلاء الذين أغويناهم، أغويناهم فغَوَوا كما غوَينا لمّا أغْوانا مَن قَبْلَنا[2]؛ وذلك للدّلالة على كثرةِ الغاوين والمغوين، بما يتضمّن تحذيرًا للمخاطبين من الغوايةِ وأهلها، ودعوةً لهم للحذرِ منها، والإيمان بالله ورسوله.

في التنبيهِ على كـثرةِ الـغـاويـن والمُغْوين تحذيرٌ مـن الـغـوايـةِ وأهلها

دلالة تكرار مادة الإغواء في الآية:

تكرّرت مادة الإغواء في الآية ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ خمسَ مرّات في عدّة مفردات مُظْهَرةً ومقدَّرة، ولم يَقْتَصِرْ مثلًا على جُملة: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ بحيث يكون التّقدير: (الذين أغويناهم كما غوينا)؛ لقَصْدِ الاهتمامِ بذِكْرِ هذا الإغْواءِ بتَأكيدِه اللَّفظيِّ، أي أنّهم أكّدوا إقرارهم بإغواءِ الأتباع، ولقصدِ الإجْمالِ في المرَّةِ الأولى، وتَفْصيلِه في المرَّةِ الثانية[3].

إبـــرازُ الـتّـأثـيرِ السّلبيّ للإغواءِ على الأشخاص، وتأكيدُ خطورته، والتّنفيرُ منه

وهذا التَّكرارُ بذكرِ مادّة الإغواء يُسلّطُ الضّوء على الإضلالِ الشّديد الذي تعرّضوا له من قِبَل رؤسائهم، وفعلوه مع أتباعهم، ويُبرزُ التّأثيرَ السّلبيّ لهذا الإغواءِ على الأشخاص، ويؤكّد خطورته، وينفّرُ منه. ويتضمّن التّوجيهَ للمخاطبين للتّوبةِ إلى اللّهِ، والابتعادِ عن الغوايةِ وأسبابها وأهلها، والحذرَ منها قبل فوات الأوان.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 185.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 334.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 185.

عِلَّةُ فَصْل جملة ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾:

استِئْنافٌ يبيّنُ ما ظنّه أئمّةُ الكفرِ سببًا لتخفيف العذابِ

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ عن التي قبلها، ولم يربطهما بعاطفٍ؛ لأنَّ بينهما شبهَ كمالِ اتّصال؛ إذ جُملةُ ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ استِئْنافٌ بَيانيٌّ لجُملةِ ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾؛ لأنَّ اعْترافَهم بأنَّهم أغْوَوْهُم يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ مُتعَجِّبٍ: كيفَ يَعْتَرِفونَ بمِثْلِ هذا الجُرْمِ؟ فأرادوا بَيانَ الباعثِ لهم على إغْواءِ إخْوانِهم، وهو أنَّهم بَثّوا في عامَّةِ أتْباعِهم الغَوايةَ المُستقِرَّةَ في نُفوسِهم، وظَنّوا أنَّ ذلكَ الاعترافَ يُخفِّفُ عنهم مِن العذابِ؛ بقَرينةِ قولِهم: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[1].

غرض الخبر في ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾:

تبرّؤُ أئمّةِ الكفر من أتباعهم بحجّة عدمِ إجبارِهم على الضّلال واشتراكِهم فيه

أفادتِ الجملةُ الخبرية ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ الإخبارَ بأنّ أئمة الكفر ما أكرهوا الأتباعَ على الغيِّ، وإنّما أوقعوا عليهم الإغواءَ والإضلالَ بما زيّنوا لهم من الأقوال بالوسوسةِ والتَّسويل، فغَووا باختيارِهم ورضاهم دون إكراهٍ منهم ولا إجبارَ مع ما آتى اللّهُ الأتباعَ من الرّسل وما لهم من العقول، وهذا كما حصل معهم مع من أغواهم ممّن فوقهم. ومرادهم بهذا الإخبار التبرّؤُ من أمرِ الأتباع، وأنّه لا لومَ عليهم في الحقيقة بسببهم، ولا يلزمهم عقوبةٌ بسببهم[2].

معنى الكاف وغرضها في قوله: ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾:

لا فرقَ بين غيّ أئمّة الكفرِ وغيِّ الأتباعِ فكلٌّ منهما كان باختياره

الكاف في ﴿كَمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ صفةُ مصدرٍ محذوف، تقديره: أغويناهم، فغوَوا غيًّا مثل ما غوينا باختيارنا وباختيارهم، فقد اختاروا الكفر بأنفسهم، هوى منهم للباطل ومَقْتًا للحقّ، لا بقوّة منّا على استكراههم ولا سلطان[3]، فلم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 185.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 334، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 426.

نخيِّرهم عن أنفسنا، بل اخترنا لهم ما اخترناه لأنفسنا، فاتّبعونا بهواهم[1]. وبالتّالي فغرضُ الكاف هو التّسويةُ بين الغَيَّيْن، يريدون بذلك التبرُّؤَ من الغاوين، وألا يتحمّلوا العقوبةَ بسببهم.

فنّ الاحتباك في قوله تعالى: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾:

تركيزُ أئمّة الكفرِ على حالهم طلبًا لتخفيفِ العذابِ عنهم

في قوله تعالى: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ احتباكٌ[2]؛ حيثُ حُذِفَ أوَّلًا (فغَوَوا)؛ لدَلالةِ ﴿غَوَيْنَا﴾ عليه، وثانيًا (لَمّا أغْوانا مَن قَبْلَنا)؛ لدَلالةِ ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾ عليه[3]، وفيه إشارةٌ إلى تركيزِ أئمّة الكفرِ على حالهم؛ طلبًا لتخفيفِ العذاب عنهم؛ ببَيانِ أنّهم جمعوا بين أنْ يكونوا غاوين ومغوين، وأنّ الباعثَ لهم على إغْواءِ إخْوانِهم، بأنَّهم بَثّوا في عامَّةِ أتْباعِهم الغَوايةَ المُستقِرَّةَ في نُفوسِهم[4]، وأنّ أتباعهم يتحمّلون المسؤوليّة في الغواية؛ إذ إنّهم لم يجبروهم عليها، وإنّما كان منهم الوسوسةُ والتّزيين فقط، فلا لومَ عليهم في الحقيقة، ولا تلزمهم عقوبة بسببهم[5].

علة فصل جملة ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ عمّا قبلها:

تصريحُ وتقريرُ أئمّة الكفر بالتبرّؤ من المسؤوليّة دلالةٌ على عظيمِ خوفهم من العذاب

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ عن التي قبلها، ولم يربطهما بعاطف؛ لِما بينَ الجملتين من كمالِ اتّصال، أي اتّحادٍ تامّ في المعنى؛ بسببِ كون قوله تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ مقرِّرةً لمَعنى الجملةِ الأولى ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾[6]، ومصرِّحةً بمضمونها[7]. وفي هذا التّصريحِ والتّقرير من أئمّة الكفر بالتبرّؤ من المسؤوليّة بحجّة عدمِ

(1) حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 1419.
(2) الحذفُ مِنَ الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِنَ الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، السيوطي، الإتقان: 3/ 204.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 334.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 185.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 334، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 426، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 4/ 182، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 334.

إجبارِ الأتباعِ؛ دلالةٌ على عظيمِ خوفهم من العذابِ الذي لا يستطيع لفظُ التّعبيرَ عن شدّته.

دلالة التّعبير بالتبرّؤ مادةً وصيغة في ﴿تَبَرَّأْنَآ﴾:

حـــرصُ أئـمّـة الكفرِ على تَـبرُّؤِ مـحـقَّــقٍ مـن أتباعهم يُظهرُ لـلـمـخـاطـبـين شـدّةَ عداوتهم لهم

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ التّبرّؤ في قوله تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾؛ لكونه أنسبَ مع حالِ المتبرّئين - وهم أئمّةُ الكفرِ والضّلال - في الآخرة؛ إذ كانوا حريصين كلَّ الحرصِ على التّخلّص من تبعةِ المسؤوليّة عن إضلالِ الأتباعِ بأعلى درجات التخلّص؛ إذ أصلُ التّبرّؤ في اللغة التَّباعُدُ من الشَّيءِ ومُزايَلَتُهُ[1]. ومن معانيه: التّقصّي ممّا يُكرهُ مجاورته، وخُلوصُ الشّيء من غيره[2]. ومجيء الفعل بصيغة التّفعُّل يدلُّ على الاجتهادِ في طلبِ البراءة، مما يؤدّي إلى قطعِ العلاقاتِ والتّباعد والانفصالِ الكامل عن الذّاتِ أو عن الفكرة[3]. ومِنْ ثمَّ فالتّبرّؤ أقوى وأعمُّ من التّنصّلِ أو التّخلّص مثلًا؛ الذي يعني التهرّبَ من المسؤوليّة[4]؛ لأنّ التّبرؤ رفضٌ واضحٌ صريحٌ للعلاقةِ مع الأتباعِ بكافة أشكالها.

ومجيءُ لفظ التّبرّؤ بصيغة المضيّ، دون المضارع، فلم يقولوا: (نَبْرَأُ إليك منهم)، رغم أنّ أئمّةَ الكفر يتبرّؤون من أتباعهم يوم القيامة؛ وذلك للإشارة إلى حرصهم على تحقّق هذا التّبرؤ ووقوعه، وأنّه منهم أمرٌ محقّقٌ مؤكّدٌ لا رجوعَ فيه. وكذلك لتناسب صيغة الماضي مع الأفعال الماضية الواردة في السّياق، مثل: ﴿قَالَ﴾ و﴿حَقَّ﴾ و﴿أَغْوَيْنَآ﴾ و﴿أَغْوَيْنَـٰهُمْ﴾ و﴿غَوَيْنَا﴾ و﴿كَانُوٓاْ﴾.

وفي إظهارِ هذا الحرص من قبل أئمّة الكفر دلالةٌ على خذلانهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برأ).
(2) الرّاغب، المفردات، والزّبيدي، تاج العروس: (برأ).
(3) المناوي، التّوقيف على مهمات التّعريف، ص: 90.
(4) ابن منظور، لسان العرب، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ومعجم المغني: (نصل).

لأتباعهم، بما يكون فيه تنبيهٌ للمخاطبين على عداوةِ هؤلاء لهم، وضرورة الحذر من إغوائهم في الدّنيا.

دلالة حذف متعلّق ﴿تَبَرَّأْنَآ﴾:

حُذفَ متعلِّق ﴿تَبَرَّأْنَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾؛ إذ التّقدير: تبرّأنا إليك من الأتباع[1]؛ اختصارًا؛ للعلم به؛ لأنّه قد دلّ ما سبق من الحديث عن الأتباع؛ والجملة تقريرٌ لما قبلها[2]، وأيضًا لإفادة العموم[3]، وتَبرَّؤوا مما اختاروه من الكفر[4]، ومن عقائدهم وأعمالهم[5]، ومن ولايتهم ونصرتهم[6]، ومن تحمّل وزر شركهم ومعاصيهم[7]، ومن انفرادهم بإضلالهم[8]، وعبادتهم لهم[9]، وهذا العمومُ يتناسبُ مع المعنى اللغوي للتّبرّؤ، ومع حالِ المتبرِّئين وهم أئمة الكفر.

تبرّؤ أئمّة الكفر من كلّ ما يتعلّق بأتباعهم ينبئُ عن شدّةِ خذلانهم لهم

معنى (إلى) في القيد ﴿إِلَيْكَ﴾:

أتى فعل التّبرّؤ معدًّى بالحرف (إلى) في قوله تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ وهو حرفُ انتهاءِ الغاية، فأفاد تحديدَ الغاية في طلبِ أئمّة الكفر التّبرّؤَ من أتباعهم؛ إذ عبّر بحرف الانتهاء؛ ليدلّ على جدّهم واجتهادهم في طلب التّباعد والتخلّص والانفصال عن أتباعهم، حتى تتحقّق الغاية من تَبَرُّئِهم منهم.

بلوغُ أئمّةِ الكفر الغايةَ من التّبرّؤ من أتباعهم

دلالة التّقييد بالجارّ والمجرور ﴿إِلَيْكَ﴾:

قيَّد البيانُ القرآنيُّ التبرّؤ بالجارِّ والمجرور ﴿إِلَيْكَ﴾ في قوله

تبرّؤ أئمّةِ الكفر كان إلى اللهِ خاصّةً حين أيقنوا بأنّه وحده المستحقّ للعبادة

(1) حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 1419.
(2) حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 1419.
(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 20/ 481.
(4) النّسفي، مدارك التّنزيل: 2/ 653.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 9.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 606.
(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 426.
(8) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 335.
(9) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 8/ 187، والسَّمَرقَنْديّ، بحر العلوم: 2/ 615، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 250.

تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾، للدّلالة على أنّ تبرّؤ أئمة الكفر من أتباعهم كان إلى الله خاصّة دون غيره، لكونهم في موقف الحساب والسّؤال أمام الله، فأدركوا حينها أنّ الله محاسبهم على إغوائهم لأتباعهم، فحاولوا التخلّص من هذه التّبعة وقطع علاقاتهم بالأتباع.

علّة فصل جملة ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾ عمّا قبلها:

وجهُ براءةِ أئمّة الكفر من أتباعهم عدم عبادتهم لهم

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾ عن التي قبلها ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾، ولم يربطهما بعاطف؛ إمّا لكون الجملتين مُقرِّرتَين لمَعنى الجملةِ الأولى ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾[1]، أو لِما بينهما من شبه كمالِ اتّصال؛ إذ جاءتِ الجملةُ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنّ تَبَرُّؤَهُم يثيرُ سؤالًا، وهو: ما وجهُ براءتكم وقد أقررتم بإغوائهم؟ فيقولون، كما حكى القرآن ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾[2].

معنى ﴿مَا﴾ في قوله ﴿مَا كَانُوٓاْ﴾:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾ نافية، والمعنى: أي ما كانوا يعبدوننا، وإنَّما كانوا يعبدون أهواءَهم. ويحتملُ أنْ تكون مَصْدريةً متّصلة بـ﴿تَبَرَّأْنَآ﴾ أي تبرّأنا من عبادتهم إيّانا[3].

دلالة التّعبير بالكون الماضي ﴿كَانُوٓاْ﴾:

المبالغةُ في نفي عبادةِ الأتباعِ لأئمةِ الكفر تأكيدٌ على التّبرّؤ منهم

في قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾ آثرَ البيانُ القرآني فعلَ الكينونة الماضية على غيره؛ للدّلالة على المضيِّ والانقضاء. كما أنّ التّعبير بفعل ﴿كَانُوٓاْ﴾ الذي يدلّ على الدّوام والاستمرار؛ يشيرُ إلى المبالغةِ في نفي عبادةِ الأتباعِ لأئمةِ الكفر طيلة حياتهم في الدّنيا، وفيها التّأكيد على تَبَرُّئِهم من أتباعهم، ومن تحمّل تبعة شركهم ومعاصيهم.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 426، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 182، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 335.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 183، والسّمين الحلبي، الدّر المصون: 8/ 689، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22.

نكتة تقديم المفعول ﴿إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾:

حـــرصُ أئـمّـة الكفر على التبرّؤ مـن انـفـرادهـم بإضلالِ الأتباع

قدّم النّظم الحكيم المفعول ﴿إِيَّانَا﴾ على الفعل والفاعل ﴿يَعْبُدُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ ولم يقل: (ما كانوا يَعْبُدونَنا)؛ للاهْتِمامِ بهذا التَّبَرُّؤِ، مع رعايةِ الفاصِلةِ[1]. ولإفادة الاختصاص، أي: ما كانوا يعبدوننا خاصّةً، بل كانوا يعبدون أهواءَهم[2]، والأوثانَ بما زيّنْتَ لهم أهواؤهم، وإن كان لنا فيه نوعُ دعاءٍ لهم إليه وحثٌّ عليه، فأقلّ ما نريد أنْ يوزَّع العذاب على كلّ من كان سببًا في ذلك كما في الآية الأخرى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ [إبراهيم: 21]. وضلَّ عن الجهلة أنَّ هذا لا يغنيهم عن الله شيئًا، فإنَّ الكلّ في العذاب، وليس يغني أحد منهم عن أحد شيئًا، قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨﴾ [الأعراف: 38][3].

دلالة التّعبير بالعبادة في ﴿يَعْبُدُونَ﴾:

العبادةُ طاعةٌ مـع خـضـوعٍ وتـــذلّـــل ولا يستحقّها إلَّا من له غايةُ الإفضال سبحانه

عبَّرَ البيانُ الإلهيُّ بالعبادة في قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ دون لفظ الطّاعة مثلًا، فلم يقل: (ما كانوا إيانا يطيعون)؛ لكون العبادة أبلغَ، وأنسبَ للسّياق من لفظ الطّاعة؛ فالعبادةُ هي الطاعةُ مع الخُضوعِ والتذلّل[4]، فلا يستحقّها إلّا من له غايةُ الإفضال وهو ﷻ[5]، فكان التّعبيرُ بها أنسبَ مع السّياق الذي هو تبرّؤ رؤساء الكفر من عبادة أتباعهم لهم، لعدمِ استحقاقهم للعبادة. وقد أتى الفعل ﴿يَعْبُدُونَ﴾ بصيغة المضارع التي تدلّ على التجدّد والاستمرار، للدّلالة على تأكيد نفي استمرار عبادة الأتباع في عبادتهم لرؤساء الكفر، وذلك مبالغة منهم في التبرّؤ، وكذلك في مجيء الفعل مضارعًا مراعاة للفاصلة القرآنية.

---

(1) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 8/ 689، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 159.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 335.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عبد).
(5) الرّاغب، المفردات، ص: 542.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الزّعم والادّعاء:

الزّعم قولٌ من غير صحّة ولا يقين، كقول المشركين بأنّ لله شركاء

الزَّعْمُ في اللغة له أصلان: الأول القَوْلُ مِنْ غَيْرِ صِحَّةٍ ولا يَقينٍ، والثّاني: التَّكَفُّلُ بِالشَّيْءِ، والزّعم حكايةُ قولٍ يكون مظنّة الكذب[1]، وأكْثَرُ ما يَكونُ الزَّعْمُ فيما يُشَكُّ فيهِ ولا يَتَحَقَّقُ، أو فيما كانَ باطِلًا أوْ فيهِ ارْتيابٌ، والزَّعْمُ ادّعاءُ العلم بالشّيء، وقد جاء في القرآن في مَوضِع ذمٍّ لِلْقائِلين؛[2] ومن ثَمَّ فالقولُ عندما يكونُ بلا دليلٍ، فإنّ صاحبه ضامنٌ له ومتكفّلٌ بصدقِ ما قاله. وأمّا الادِّعاءُ: أنْ تَدَّعيَ حَقًّا لَكَ أوْ لِغَيْرِكَ، وادّعى كَذا: زعم أنّه لَهُ حَقًّا أو باطلًا، وادَّعَيْتُ الشَّيْءَ تَمَنَّيْتُهُ، وادَّعَيْتُهُ طَلَبْتُهُ لِنَفْسي[3]، وقد يتَضمَّنُ الادّعاءُ مَعْنى الإخْبار فتَدْخلُ الباء جَوازًا، يُقال: فلانٌ يَدَّعي بكَرَم فِعاله، أي يُخْبرُ بذلكَ عَن نَفْسِه[4] ويدّعي أنّ له حقًا أو لغيره، ويطالبُ به، وقد ناسبَ التّعبير بالزّعم؛ إذ جاء في معرض ذمِّ المشركين، الذين زعموا أنّ للّهِ شركاء.

الغواية والضّلال:

الغوايةُ أشدُّ من الضّلال، فهي إمعانٌ في الضّلال؛ إذ الغوايةُ: الانهماكُ في الباطل، والغَيُّ جَهْلٌ مِن اعْتِقادٍ فاسِدٍ[5]، والتَّغاوي: التَّجَمُّعُ والتَّعاوُن عَلَى الشَّرِّ، والغوايةُ تدلّ في أصلِ مادّتها على إظْلامِ الأمْرِ، وعلى فَسادٍ في شَيْءٍ، وهي خِلافُ الرُّشْدِ[6]. وأمّا الضّلالُ فهو فقدانُ ما يوصل إلى المطلوب، أو سلوكُ طريقٍ لا يوصل إلى المطلوب[7]؛ إذ أصله يدلُّ على ضياعِ الشّيءِ وذهابه في غيرِ

الغوايةُ أشدُّ وأخصُّ من الضّلال وتتناسبُ مع إغواءِ أئمّة الكفر لأتباعهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (زعم).
(2) الكفوي، الكلّيّات، ص: 488.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيّومي، المصباح المنير: (دعو)، والكفوي الكلّيّات، ص: 67.
(4) الزّبيدي، تاج العروس: (دعو).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (غوى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غوي).
(7) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 138.

حقّه[1]، وهلاكه، يُقال: ضلّت النّاقة إذا هلكت[2]. والضّلالُ: ضدّ الهدى، إذ يُقال لِكُلِّ عُدولٍ عَن الحَقِّ، عَمْدًا كانَ أو سَهوًا، يَسيرًا كانَ أو كثيرًا[3]، ويُستعمل بمعنى الخطأ[4]. والغوايةُ أخصُّ من الضّلال؛ فالضّلالُ أنْ لا يجدَ السّالكُ في مقصده طريقًا أصلًا، والغوايةُ أنْ لا يكون له إلى المقصد طريقٌ مستقيمٌ. وأيضًا الضّلالُ يُستعملُ في الطريق كما يُستعملُ في الدّين؛ فيقال: ضلّ عن الطريق إذا فارقه، والغيُّ لا يُستعمل إلا في الدّين خاصّة[5]، والضلالُ عامٌّ يكون للعاقل وغيره، يُقال ضلّت النّاقة، ولا يُقال غوتْ، فالغوايةُ خاصّةٌ بالعاقلِ المكلّف. ومن هنا كان اصطفاءُ لفظِ الغواية أنسبَ؛ لكون السّياق هنا في غوايةِ الدّين خاصّة؛ وكون الإغواء من أئمةِ الكفر لأتباعهم، فهي أشدُّ من الضّلال؛ إذ هي ضلالٌ مع فسادٍ وجهلٍ وإظلامٍ للأمر، وانهماكٍ في الباطل، وتجمّعٍ وتعاونٍ على الشرّ.

التّبرُّؤ والتّنصّل:

التّبرّؤ: طلبُ البراءة وإيقاعها بجدٍّ واجتهادٍ، وقيل إظهارُ التّخلّص من وصلةٍ أو اشتباك[6]، وأصلُ التّبرّؤ من (برأ) وهو التَّباعُدُ مِنَ الشَّيْءِ ومُزايَلَتُهُ ومفارقته، مِنْ ذَلِكَ البُرْءُ؛ وهوَ السَّلامَةُ مِنَ السُّقْمِ[7]، والتَبَرّي: التّقصّي ممّا يُكره مجاورته، وخُلوصُ الشّيء من غيره[8]، وتبرَّأ من الشَّخصِ: تباعَدَ وتخلّى عنه، وتخلّص منه وقطعَ صلته به[9]. وأما التّنصّل فأصله يَدُلُّ عَلَى بُروزِ الشَّيْءِ مِنْ كِنٍّ وسِتْرٍ

التّبرّؤ أقوى من التّنصّل؛ فالتّبرّؤ رفضٌ واضحٌ صريحٌ للعلاقةِ مع التّباعد وقطعِ الصّلة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضل).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 214.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 394، والزبيدي، تاج العروس: (ضلل).
(4) الراغب، المفردات: (ضلّ).
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 292، 394، والنّيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 199.
(6) المناوي، التوقيف على مهمات التعريف، ص: 90.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (برأ).
(8) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (برأ).
(9) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (برأ).

أوْ مَرْكَبٍ، وتَنَصَّلَ مِنْ ذَنْبِهِ: تَبَرَّأ، كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْهُ[1]، والتَّنَصُّلُ: شِبْهُ التّبرُّؤ مِنْ جِنايَةٍ أو ذَنْبٍ، وتنصَّل من المسؤوليَّة أو الذَّنْبِ: أنكرها، وتبرَّأ وتخلّص وتملّص منها[2].

إذن: التّبرّؤ طلبٌ بجدٍ يؤدّي إلى قطعِ العلاقاتِ والتّباعد والانفصالِ الكامل عن الذّاتِ أو عن الفكرة، بينما التّنصّل هو التّهرّب من المسؤولية والالتزامات والتّملّص منها، فالتبرّؤ أقوى وأعمّ من التّنصّل؛ إذ التبرّؤ رفضٌ صريحٌ للعلاقةِ مع قطعِ الصلةِ بها، وإظهارٌ واضحٌ لهذا الانفصال والمفارقة والتخلّص والتخلّي، ومن هنا كان استعمالُ لفظ التبرّؤ أنسبَ لحالِ قادةِ الكفر، ورفضهم الصّريح لعلاقتهم بأتباعهم، وإعلانهم الانفصالَ والمفارقةَ والتخلّي عنهم، والتخلّصَ الواضح لِما كان منهم من الكفر والشرك والمعاصي.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصل).

(2) ابن منظور، لسان العرب، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ومعجم المغني: (نصل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والأربعون،
سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 41 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-92-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 41 : المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-92-1
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-2914887 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»